السكينة والطمأنينة أو الاطمئنان

السكينة مشتقة من جذر السكون، وهي: الوقار، الجدية، المهابة، الأنس، أو سكون الأمواج. فهي ضد الطيش والقلق والتردد والاضطراب. ولدى أرباب التصوف هي استقرار القلب بالواردات الغيبية. فمثل هذا القلب في دقة وحيطة دائمين، ويتطلع إلى المابعد، وهو منفتح للنفحات اللاهوتية، ويجول دائماً حول الاطمئنان. فهذا المقام، في الوقت نفسه، بداية مرتبة "علم اليقين". وعلى هذا كثيراً ما تختلط واردات ترد بطريق العلم بما اقتنصته البصيرة، فيتضبب مؤقتاً أفق المشاهدة. وقد يتولد بعض الالتباسات من هذا.

والسكينة تظهر أحياناً بشكل إشارات وأمارات خفية، بين الحدس وعدمه، وأحياناً تظهر بتجليات واضحة إلى حد يعرفها حتى أمثالنا من العوام. والسكينة وما يرافقها من إشارات وأمارات، سواء كانت كهمس في إذن الوجدان بنسيم معنوي كنفحة إلهية، التي لا تحدس إلاّ بدقة متناهية، أو بشكل جسم يظهر الخوارق يراه الجميع، مثلما أُحسن إلى بني إسرائيل – ويمكن أن نتذكر أموراً ملفعة أخرى كما رآها أسيد بن الحضير ﷺ لدى تلاوته القرآن، وآخرون في أوضاع أخرى – فإنها ترفع قوانا المعنوية وتعلو بها وتزيد من قوة إرادتنا، فهي في كل وقت تأييد إلهي، ومدار شكران

وشوق للذين يدركون عجزهم وفقرهم ويستشعرون بحاجاتهم، كما توضحه الآية الكريمة ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ (الفتح:٤). فالمؤمن المحظوظ بهذا التأييد لا يضطرب ولا يقلق من خوف دنيوي أو حزن وكمد، كما أنه يصل إلى طمأنينة متوازنة في الداخل والخارج.

فالذي نال هذه السكينة فهو رجل موازنة وطمأنينة، وقورٌ في سلوكه، يوحي بالأمان والصدق والجدية. وفي عالمه الداخلي في حذر وتيقظ دائم، وفي علاقته مع الله مدقق بعيد عن الأنانية والشطحات، قد سدّ الأبواب تماماً في وجه هذيانات البكتاشية. إنه يدرك أن كل نفحة وكل وارد يورث الانشراح فهو منه تعالى، فيخشع ويخبت في أدب جم. ويعزو كل قلق واضطراب إلى ما في ماهيته من ثغرات. فيحاسب نفسه، بل يتحاسب معها دوماً.

وقد عُرّف الاطمئنان والطمأنينة، بالسكون التام والاستقرار التام وانتهاء المد والجزر في حياة القلب وعدم اضطرابه وقلقه. وهذا يبين أن الاطمئنان حالٌ فوق السكينة. فلئن كانت السكينة بداية الانتباه إلى الحقيقة والتخلص من المعلومات النظرية، فالطمأنينة نقطة النهاية.

إن ما يبينه أرباب التصوف من درجات "الراضية" و"المرضية" فوق الطمأنينة، هما بُعدان يخصان الاطمئنان للأبرار، وعمقان لسماء "الرضا". أما "الملهَمة" و"الزكية" فمرتبتان تخصان المقرّبين، تستعصيان على الفهم، وواردهما، وكذا بشاراتهما كثيرة جداً ورائقة جداً.

هذا وفي الأرواح التي نالت السكينة يمكن أن تُظهِر تياراتٌ مخالفة نفسَها في بعض المواضع. ولكن في الطمأنينة، فكل شيء يجري على ما يرام. فالقلب كالبوصلة يؤشر دائماً إلى مرضيات الحق سبحانه، ولا تحيد إبرة الوجدان قيد أنملة عنها، فهذه مرتبة من مراتب "اليقين" بحيث إن الروح السائحة في هذه المرتبة تكون شاهدة في كل موضع على حقيقة أخرى من حقائق ﴿وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة:٢٦٠)، وتُكرَّم بواردات جديدة في كل منزل. وتحسّ في كل مكان تحول فيه بنفحات ﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة:٦٢)، وتشعر بـ ﴿أَلاّ تَخَافُوا وَلاتَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت:٣٠) وتتذوق بكوثر ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد:٢٨).. فتحيا دائماً بحياة أسمى بكثير من طبيعتها وجسمانيتها.

الطمأنينة هي عنوان موقع الإنسان فوق الأسباب وما بعد الوسائل. إذ العقل ينهي في هذه المرتبة سياحته فوق الطبيعة.. والروح تتخلص من قلق الدنيا حين بلوغها هذه المرتبة.. والحس يجد كل ما يبتغيه في هذا المنزل الساحر فيتحول بحراً بعد أن كان قطرة.

إن أُنس مَن كسب هذه المرتبة هو "الأنس بالله" وشوقَه هو "الشوق إلى الله" وبقاءه هو "البقاء بالله" وكلامه هو "مع الله".[1] فهو يصل من الكوة التي فُتحت له، مع محدوديته، إلى بصر بلا حدود، وسمع بلا حدود، وقدرة

---

١) العبارات هنا تعني على التوالي: "إدراك أثر الجمال الإلهي في القلب"، "رضا الله الذي يفوح دائما في القلب"، "العلم بأن الوجود قائم بوجود الحق سبحانه"، و"الكلام آت من كلامه سبحانه".

بلا حدود، بحيث يستطيع أن ينجو بنَفَس واحد من دوامة الحوادث المحيرة المختلطة والمتداخلة جداً، ويتخلص منها.

فمثلما ينجو مثل هذا الروح من الاضطرابات والقلق الدنيوي، يبتسم بوجه الموت الذي يرتجف منه الناس جميعاً.. ويهش بما بعده من الحواجز والعوائق، وذلك بفضل تكرمة ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ (الفجر:٢٨).. ويرى الموت أطيب نتيجة للوجود، وأكثر ما يُغبَط عليه.. ويسمع في كل منزل بعد الحياة الدنيا التي تنتهي بالموت الأمر الإلهي: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ كما سُمع من قبر ابن عباس رضي الله عنه.. ويُمضي حياة القبر على ربوع الجنة.. ويشعر بالمحشر موضعَ حيرة وإعجاب.. ويحيا بنشوة المخافة والمهابة عند الميزان، عابراً الصراط دون حيدة، فيبلغ الجنة التي هي دار قرار من بلغ في روحه درجة الاطمئنان.

فالدنيا لمثل هذا الروح أشبه ما يكون بوقفة عرفة لمن شدّ الرحال إلى "العفو والغفران"، والزمان الذي فيها هو يوم عرفة للعيد العظيم. أما العقبى فهي عيد الأعياد.

رَبنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار،

وصلّ وسلم على سيدنا محمد النبي المختار

وعلى آله وأصحابه الأخيار.

القرب والبعد

القرب لدى الصوفيين: تقرّب الإنسان إلى الله سبحانه بتخطيه قيود الجسمانية متحولاً إلى الماورائية. ورغم أن هناك من فهموا القرب أنه قرب الله لعباده، إلاّ أنه لا يُستحسن وغير لائق، لما فيه من إشمام لمعاني إضافة المكان والمسافة إليه تعالى. مع أن قرب الحق تعالى لعباده هو فوق "الكينونة" و"الصيرورة". فالقرب الحاصل بعد أن لم يكن موجوداً، هو من خصائص الذين أُوجِدوا بعدئذ (أي بعد الخلق) والذين يقضون وجودهم في تكونات متنوعة. هذان القربان يبيّنه الكلام النوراني الوجيز في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (الحديد:٤). فمثل هذا القرب ليس هو القرب الخاص الذي يحصل بالإيمان والعمل الصالح، بل هو قربية عمومية تضم تحت أجنحتها كل شيء، من الذرات إلى المجرات؛ السعيد والشقي، والطيب والخبيث، والصالح والطالح، والأحياء والأموات.

نعم، إن القرب العمومي الذي يضم كل الناس تحت مظلته، يقابله القرب الخصوصي الذي يستند إلى الإيمان ويتحقق بمعايشة واتباع أحسن ما أمر الله سبحانه به. وهذا يحصل للمحظوظين الذين وجدوا طريق القرب ودخلوا الرواق المؤدي إلى الخلود، فيُصبحون ويُمسون بعمق جديد يومياً ويجولون في أفق ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾

(النحل:١٢٨). فالذين حازوا هذه المرتبة يتنفسون القربة، إذ يقولون عند شهيقهم ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء:٦٢) وعند زفيرهم ﴿إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ (التوبة:٤٠).

إن ما في القرب الخصوصي من شعور الإيمان وحقيقة الإحسان، كالنور في البصر، والروح في الجسد. أما أداء الفرائض والنوافل بالاستناد إلى هذين الأساسين فهو بمثابة جناحين شرعا إلى سماء اللامتناهي. نعم، إن أسلم طريق يقرّب الإنسان إلى الله سبحانه وأقصره وأكثره قبولاً هو طريق أداء الفرائض. أما المحبوبية الحقيقية وبدورها القربة، فإنما تتحقق في إقليم النوافل اللامتناهي الذي يفوح بالوفاء. إذ يجد سالك الحق نفسه كل آن تحت جناح نافلة أخرى في رواق جديد ممتد إلى الخلود، ويستشعر أنه بلغ حظوة جديدة، فيصل إلى حالة أكثر شهية لأداء الفرائض وأكثر شوقاً نحو النوافل.

فكل من تنبهت روحه إلى هذه النقطة وانتهى إلى هذا المعنى، يشعر في وجدانه أنه محبوب عند الله، بمدى حبّه لله، وإذا بسمعه وبصره وبطشه ومشيه يجري في دائرة "المشيئة الخاصة" مباشرة، كما ورد في حديث قدسي.

وبتعبير آخر: إن "القربة" بالفرائض عنوان آخر لبلوغ الإنسان مقام المحبوبية، ووجوده بين أحبّاء الله المرضيين عنهم. أما "القربة" بالنوافل، فهي مقام إضافة حركات الإنسان وسلوكه إلى ذات الحق سبحانه، فهو مقام تكريم وتشريف خاص لكل أحد في ظل قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ (الأنفال:١٧).

وإن إيضاح القربة التي هي توجّه خاص، بأفعال الإنسان وسلوكه متغاضياً

عن نقطة التوجه خطأ كذلك. فالقرب شأن من شؤون سموّه وعلـــوّه تعـــالى، وبُعدٌ من أبعاد رحمته الواسعة. أما البُعد فهو يخصنا وثغرة في ماهيتنا. وما أجمل ما يشير صاحب كلستان إليه: القرب لمن والبعد لمن ؟

دُوسْت نَزْدِيكْتَر اَزْ مَنْ بَمَنْ استْ

وِينْ عَجَبْتَر كِه مَن اَزْ وَيْ دُورَم

چِكُنَم بَا كِه تَوَان گُفْت كِه اُو

دَر كَنَارِ مَن وُ مَن مَهْجُورَم

أي: "الحبيب أقرب إليّ مني، والعجب أني بعيد عنه، فما حيلتي ومـــاذا يمكنني أن أقول: فالحبيب معي وبجنبي، ولكني بعيد عنه".

البُعد، يعني التنائي والهلاك، والمتصوفون يرون أنه: انقطاع فيوضات الحق سبحانه والابتعاد عن الله من حيث المبدأ، وخذلان وحرمان مـــن حيـــث النتيجة إن لم تكن هناك عناية خاصة. وأكّدوا أنه ينبغي الاقشعرار والرعدة منه.

وكما أن للقرب درجات حسب عوام المؤمنين، والأولياء، والأصـــفياء، والأبرار، والمقربين، فالبُعد كذلك فيه دركات، والدرك الذي هو الهـــلاك المطلق يشغله الشيطان.

القرب توجّه والبعد حرمان، فهذا شيء أما الحدس بهما فهو شيءٌ آخر. وأحياناً عدم الشعور بالإكرام هو أعظم إكرام، فلا يدرك أقـــرب المقـــربين مدى قربيته. وأحياناً يكون المكر تاماً فلا تُحدس ظلمات البُعد، وأحيانـــاً

يتغلب حال السُكر فلا يميَّز القرب من البعد. ولهذا لا يشاهد في أمثال هؤلاء شوقٌ إلى القرب ولا خشيةٌ من البعد. و يعبّر "جامي" عن فكر الأرواح النشاوى الثملة.

جَامِي مَكُنْ اَنْدِيشَه نَزْدِيكِي وَدُورِي

لاَ قُرْبَ وَلاَ بُعْدَ وَلاَ وَصْلَ وَلاَ بَيْنَ

أي: "لا تقع في قلق البعد والقرب يا جامي! فليس في الحقيقة بعدٌ ولا قربٌ ولا وصال ولا افتراق".

إنه من المسلّم به أن للبعد والحرمان رِعْدةً تعتري المبعدين والمحرومين، ولكن هناك أصحاب أرواح يرتعشون أمام مهابة نفحات القرب ارتعاشاً حتى يحسبون أنفسهم – في تلك الحالة الروحية – أنهم في قبضة القهر والتدمير. وقد قيل بهذا المعنى: " قرب السلطان نار تحرق". ومع كل هذا إذا شُبّه القرب بربوع الجنة المتفتحة للنفحات الإلهية ونسمات الأنس، يكون البُعد ديناناً للحرمان والخذلان.

اللّهم إني أسالك رضاك وما قرّب إليه من قول وعمل. وصلّ وسلّم على سيدنا محمد سيد المقرّبين وعلى آله وأصحابه المخلَصين.

المعرفة

المعرفة هي علم خاص، تلك التي لا يطيقها كل شخص، ولا تظهر في كل شخص، ولا في كل مكان. أما لدى سالكي الحق فهي مرتبة توحّد المعرفة بالعارف حتى تكون طبيعة عنده. فتكون حالاتُه كلها ترجماناً للمعروف. وقد عرّفها آخرون أنها ظهور المعارف الوجدانية وانبساطها بحيث إن مثل هذا الظهور والانبساط في الوقت نفسه هو ظهور الإنسان بقيمه الذاتية وانبساطها. ولعل هذا هو مما يفهم من القول: "من عرف نفسه فقد عرف ربه".[1]

إن أولى مراتب المعرفة هي رؤية تجليات الأسماء الحسنى المحيطة بنا إحاطة تامة وحدسها، ومشاهدة إقليم الصفات الجليلة المثير للإعجاب، فيما وراء انفراج أبواب الأسرار بهذه التجليات.

ففي أثناء هذه السياحة تسيل الأنوار من عيون السالك وأذنه إلى لسانه، ويشرع قلبُه بالهيمنة على سلوكه، ويغدو سلوكه وأطواره لساناً ناطقاً بتصديق الحق سبحانه والإعلان عنه، حتى يتحول هذا اللسان كقرص مرن للـ"الكلمة الطيبة".. وإذا بأنواع من أنوار مشعة تنعكس كل آن عن شاشة

---

١) كشف الخفاء للعجلوني ٣٤٣/٢.

الوجدان من الحقيقة المنوّرة: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر: ١٠). وهكذا مثل هذا الروح يصدّ أبوابه في وجه العواطف والمشاعر الرذيلة جميعها، ووجدانٌ كهذا يتسربل برَوح نسيم الماوراء. ومن منفذ سري تنفتح إلى روحه أبواب أروقة من نورٍ تؤدي إلى مَن عُرفَ "كنزاً" الذي عبّر عنه الشاعر:

قال الحق: لا يسعني السماء والأرض

منْجَم القلب عرفه "كنزاً"

مستلهما مما جاء في حديث متشابه (ما وسعني سمائي ولا أرضي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن).[1] فيجد الإنسان نفسه في لذةِ مشاهدةٍ لا يرد على فكره الفراق ولا الرجوع عنها قطعاً.

ولما يصدّ السالك عن الأغيار ويدخل في حالة توجس وحذر مع النفسانية ويلقي بنفسه في مدّ الحضور والطمأنينة وجزره، هذه النقطة هي نقطة المعرفة. فالذي يحوم حول هذه النقطة دائماً يطلق عليه "سالك العرفان" ويسمى من بلغ إلى هذه النقطة بـ "العارف".

فكما أن الأقوال المختلفة التي ذكرت حول المعرفة نابعة من اختلاف الاستعدادات والمشارب، كذلك يمكن أن تكون ذات علاقة باختلاف المستويات.. فلقد بحث بعضهم عن المعرفة في مواضع التجلي فحسب. وظن

---

١) انظر: الزهد للامام أحمد ٨١؛ إحياء علوم الدين للغزالي ٣/١٥؛ المسند للديلمي ٣/١٧٤. كشف الخفاء للعجلوني ٢/٢٥٥، ٤٣١.

آخرون أن حس الهيبة في العارف هو من تظاهر المعرفة... وآخرون ربطوا بين المعرفة والسكينة وقضوا بعمق الأولى حسب سعة الثانية.. وآخرون فهموها بأنها انغلاق القلب كلياً عما سواه تعالى. وآخرون رأوها حيرة القلب وإعجابه في ثنايا مدّ التجليات الإلهية وجزرها... بحيث إن أمثال هؤلاء – بمقتضى المقام الذي هم فيه – تنبض قلوبهم بالحيرة وتدور أبصارهم بالإعجاب والاستحسان وتنطلق ألسنتهم بـ (لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ)[1] فيتنفسون الإعجاب والتقدير والاستحسان في الظهور والتجليات.

الحياة في إقليم المعرفة، نزيهة وهادئة، وكأنها بساتين الجنة. إذ الروح في طيران دائم والوجدان قد وصل إلى لذة الاطمئنان فينتشي نشوة الطفل ولكن في حذر وتدبير. فيُصبح ويمسي بـ ﴿لايَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم: ٦) في سباق حامٍ مع الملائكة. إن مشاعر هذه الأرواح تتفتح تفتح البراعم على المعرفة كأنهم يسيحون عدة مرات في اليوم في ربوع جمعة الجنة. إذ يتفتحون ورقة إثر أخرى كانفتاح البراعم، ويواجهون الحبيب كل آن في بُعد آخر. فيتذوقون لذة الوصال والمعية. فهم تملون بنشوة الوصال والغياب عن النفس كل يوم، وربما كل ساعة مرات ومرات، طالما عيونهم ترقب فرجات باب الحق سبحانه.

دع أدعياء العلم بعلمهم يَحْبون، والمتفلسفون بحكمتهم يتمتمون، فإن العارف يترشف الحضور والطمأنية ويترنم السكينة في منشور من نور. وحتى

---

١) مسلم، الصلاة ٢٢٢؛ ابو داود، الصلاة ١٤٨.

حينما يهتز بالمخافة والمهابة، يتذوق لذة خالدة وكأن قلبه يضحك فيما تهطل عيناه بالدموع.

بجانب هذه المزايا المشتركة لدى العارفين، نلمح بعض التمايزات النابعة من اختلاف الأمزجة والمشارب. فبعضهم عندما يذكّرون بالدوامات بهدوئهم وغور عمقهم، يدوّي الآخرون كالشلالات، وآخرون يخرجون من الدنيا و لم يقضوا وطرهم من بكاء وآهات على ما قدّموا وأخّروا من أثوبة وآثام ومن الثناء على ربهم الجليل. وبعضهم يجولون في مجال الهيبة والحياء والأُنس، ولا يفكرون بفراق البحر وبلوغ ساحله. وآخرون كالأرض يطؤهم كل غاد ورائح. وآخرون كالسحاب يظلل كل شيء، البر والفاجر، وينزلون عليهم قطرات الرحمة. وآخرون كالهواء يهبّون على مشاعرنا بألف عطر وعطر.

إن أهل المعرفة لهم أمارات تخصهم، فالعارف لا يرجو توجهاً من غير المعروف سبحانه ولا يختلي بغيره تعالى. ولا يرفع أجفانه ولا أبواب قلبه لغيره تعالى، فأقسى عذاب لدى العارف الحق، توجهه إلى الآخرين، والاختلاء بغيره تعالى، ودخول طيف الغير إلى عينه. فمن لم يبلغ المعرفة وفق هذا المقياس لا يتمكن من التمييز بين الأغيار والأحباب. ومن لم يذق الوصال مع الحبيب لا يعرف العذاب في الهجران.

لننه هذا الفصل بالآتي:

نور العرفان يشع من عيون قلب العارف

عون الله، وسر المعارف رفيق العارف م. لطفي

اللّهم كن لنا ولا تكن علينا وأعنّا ولا تعن علينا،

وصلّ اللّهم على سيدنا محمد المبعوث فينا وعلى آله وصحبه الكرام البررة.

المحبة

المحبة هي الحب، علاقة قلبية، هيام بأي شيء أو بأي شخص. والذي يهيمن على جميع مشاعر الإنسان هو العشق. والوصول إلى أبعاد عميقة بالاحتراق رغبةً في الوصال، هو الشوق والاشتياق. وعُرّفت المحبة أيضاً بأنها علاقة القلب بالمحبوب الحقيقي.. وشدة الاشتياق له بما لا يمكن مقاومته، والانصياع التام له في كل مسألة من المسائل خفية كانت أو جلية.. ومراقبة مراد المحبوب فيما يريد وغياب المحب عن نفسه حتى أعتاب الوصال. ويمكن إرجاع كل ما ذكر إلى نقطة واحدة وهي: الامتثال لدى الحضور الإلهي، والتجرد عن جميع الهموم والعلائق الفانية، مردداً: يا حق.

والمحبة الحقيقية إنما تتحقق بتوجه الإنسان بكيانه كله إلى المحبوب سبحانه والبقاء معه، وإدراكه له وانسلاخه من جميع الرغبات الأخرى ومن جميع الطلبات، بحيث إن قلب البطل الذي ظفر بهذه الحظوة ينبض كل آن بملاحظة جديدة تخص الحبيب.. وخياله يجول في إقليمه الساحر.. ومشاعره تتلقى كل لحظة رسائل متنوعة منه.. وإرادته تحلّق بهذه الرسائل.. وفؤاده يسرح في متنزهات الوصال.

فالمحب الذي اخترق أجواء نفسه بأجنحة المحبة ووصل إلى ربه في بُعد العشق والشوق لدى أدائه لحقوق سلطان قلبه ومسؤولياته نحوه، بأعضائه

الظاهرة ومشاعره الباطنة، فإن قلبه منشغل به دون انقطاع وهويته محترقة بسبحات وجه الحق[1] وفي حيرة وإعجاب، وعلى شفتيه كأس العشق.. وعندما تنفرج أمامه أستار الغيب الواحد تلو الآخر ينتشي بمطالعة المعاني المترشحة من وراء هذه الأستار، وهو في ذوق المشاهدة التي لا تطال.

فإذا ما سار سار بأمر الحق سبحانه، وإذا ما وقف وقف بأمره، وإذا تكلم تكلم بنفحات منه، وإذا ما سكت سكت لأجله، فهو أحياناً في أفق "بالله" وأحياناً في أفق "من الله" وأحياناً في أفق "مع الله".

نعم، إذا نسبت المحبة إلى الحق سبحانه فهي إحسان، وإذا أسندت إلى الخلق فهي خضوع وطاعة وانقياد. وما تقوله رابعة العدوية له أهميته في إبراز هذه المعاني:

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ هَـذَا لَعَمْرِي فِي الْفِعَالِ بَدِيعُ

لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ[2]

هذا وللمحبة ركنان مهمان:

١. ظاهري، وهو تعقب رضا المحبوب كل حين.

٢. باطني، وهو الانغلاق التام تجاه ما لا علاقة له بمحبوبه في عالمه الداخلي.

فرجال الله يقصدون بالمحبة هذه الأخيرة، ويرون أن العلاقة إزاء اللذة

---

١) أي بتجلي نور العظمة.

٢) شعب الإيمان للبيهقي ٣٨٦/١.

والمنفعة بل حتى الأذواق المعنوية، ليست محبة، ولو أُطلق عليها هذا الاسم فهي محبة مجازية.

بيد أن المحبة الحقيقية أيضاً ليست على مستوى واحد لدى الجميع من حيث تعلقها بالمحبوب فهناك:

١. محبة العوام، وهي محبة تتردد بين الهبوط والصعود، فهؤلاء يرون رؤى الإحسان تحت ظل الحقيقة الأحمدية، ويشاهدون علامات تخص بزوغ فجر المعرفة.. وفي موضع آخر يرتعدون بشهب الغيوب ويشعرون برعشات الحيرة من بعيد.

٢. محبة الخواص: فهم كالعُقبان المحلّقة في أجواء عالم المحبة يثرون عمرهم دوماً بالعمق والخصب بامتثال الأخلاق المحمدية ﷺ في عالم القرآن المنور، من دون أن يطلبوا عوضاً، مادياً كان أو معنوياً، جسمياً كان أو روحياً، أثناء تمثلهم، بل لا يطلبون ذوقاً، وإذا تمكنوا من أداء واجبهم على أفضل وجه يخفضون أجنحة التواضع إلى الأرض كالأشجار المثقلة بالعناقيد ويئنون باسم "الحبيب". وإذا ما تزلزلوا بخطأ أو بخيبة وإخفاق يشددون الخناق على أنفسهم ويحاسبون أنفسهم أشد الحساب.

٣. خواص الخواص، فهم كالغيوم المحمّلة بالأمطار في السماء المحمدي.. بهذه المحبة يستشعرون الوجود، وبها يحيون، وبها يبصرون، وبها يتنفسون. في دور دائم لا نهاية له من الامتلاء والإفراغ، فإذا ما شحنوا بها شحنوا برغبات الشوق والمعاناة والوصال، ولدى الإفراغ يمتطون النور وينزلون على الأرض فيحتضنون بحنان الموجودات جميعها حيّها وميتها.

وعلى الرغم من اختلاف مستويات المحبة، فإن من توجّه إليه تعالى بعشق وشوق يقابَل ويكرَّم حسب مستوى علاقته.

فالأولون: يجدون في بابه سبحانه الرحمة والعناية الخاصة بهم.

والثواني: يصلون إلى أفق إدراك الصفات الجلالية والجمالية، وينجون من الثغرات البشرية وظلماتها.

والثوالث: يتنورون بنور وجوده سبحانه، وينتبهون إلى حقيقة الأشياء ويربطون علاقات مع ما وراء الأستار.

بمعنى أن الله سبحانه يتجلى أولاً بسبحات وجهه سبحانه، فيحرق ويهدم الصفات الجسمانية والظلمانية لمن يحبّهم، ومن ثم يأخذهم بأنواره الجمالية إلى دائرة صفاته الجليلة كالسمع والبصر، فيجعل القطرة بحراً والذرة شمساً. أي ينبههم إلى ما في نفوسهم وكيانهم من العجز والفقر، ويوصلهم إلى الإذعان بعدميتهم، ويملأ قلوبهم بأنوار وجود الذات الإلهية.

فالمحب الذي نال هذه الحظوة، يصل إلى حياة أبدية لا يمكن وصفها بالوجود والعدم. لذا قد يتمتم بما يستشعره ويتحدس به بكلمات مشوبة بالحلول والاتحاد، كالحديد المحمرّ بالنار يظن أنه نار فيقول: أنا النار، وهو ليس بنار. ففي أمثال هذه المواقف، فالحذر واليقظة وموازين السنة النبوية هي الأساس. أما رجال الحق الذين غلب عليهم الحال وهم مخمورون بحظوظ المشاهدة، فقد يتلفظون بأمور مخالفة لهذه الحقيقة. ففي أمثال هذه المواقف، ينبغي البحث بإنصاف عن نيّاتهم وعدم الاستعجال في إصدار

الحكم عليهم. وإلاّ سيُضمر العداء للكثيرين – من دون شعور – ممن نـــالوا المعية الإلهية، بمضمون الحديث الشريف (الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ)[1] ويكون قد أعلن الحرب على الله وفق مضمون الحديث القدسي (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ).[2]

اللّهم حبّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين.

وصل وسلم على سيدنا محمد سيد المرشدين وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

١) الترمذي، الزهد ٥٠.

٢) البخاري، الرقاق ٣٨.

العشق

العشق هو محبة شديدة، صبابة وهيام، فرط المحبة الحاصلة من الكمال والجمال والمشاكلة، والذي أطلق عليه في الأغلب، العشق المجازي. وهناك محبة وعلاقة قلبية متوجهة نحو سلطان الأزل والأبد الذي جمالُه في نقطة الكمال وكمالُه في قطب الجمال وأطلق عليها العشق الحقيقي.

إن المحبة العميقة نحو الله سبحانه، أو "العشق الحقيقي" هو جناح من نور لأجل إيصالنا إليه وهو الذي قد منحه لنا. ويعبّر عنه أيضاً بتحول الروح فراشةً لأجل بلوغ "النور" الذي هو أساس الوجود.

العشق، سبب ركين للوجود وذو أسرار. ولأن الله سبحانه أراد وأحب أن تُعرَف ذاتُه الجليلة، وان الأرواحَ المتيقظة للحقيقة ستُدرك أسماءه وصفاته وذاته جل وعلا وتُظهر العلاقة العميقة نحوها خَلق المكوّنات.

وبينما العشق لدى الناس تضاعف المحبة والفناء في المحبوب، فهو لدى الخالق سبحانه محبة تليق بتنزّهه عن العجز وتقدسه عن الميول التي تخص المخلوقات، وتوافق استغناءه الذاتي، حتى يصح القول إن الخلق قد تحقق في أحضان تلك المحبة، وظهرت بها الإنسانية إلى حيّز الوجود، وجُهّزت القلوب بها حتى غدت أهم مركز للعلاقة مع الحق تعالى.

العشق، نقطة النهاية لخطوات الوصال، وليس أمام المحب البالغ إلى هذه النقطة إلاّ خطوة أو لا خطوة.. إن أول تجل للحق سبحانه هو هذه المحبة التي هي مقتضى ذاته الجليلة، والتي تسمو على كل محبة. واستعملُ هذا التعبير خاصة، تحرزاً من إسناد العشق إليه تعالى دون قيد أو شرط. وقد أطلق بعضهم على هذه المحبة الإلهية اسم "العلم" لأنه أول تنزّل لعالم الذات المطلقة المنزّهة من حيث التجلي. ويطلق على هذا التنزل، "العلم" من حيث إنه علم إلهي، و"العشق المنزّه" من حيث إنه محبة الرؤية والإراءة، و"اللوح" من زاوية إحاطته بالوجود كله، و"القلم" من حيث أخذه كل شيء مفصلاً.. وكذا "الجبروت" و"الحقيقة الأحمدية" عنوانان آخران لهذا العالم. والعشق المنزّه سرّ ذو علاقة مع الذات الإلهية؛ أما صفاتها الأخرى، فهي مضافة إلى العشق. ولهذا فالذين يطيرون بأجنحة العشق يصلون مباشرة إلى الذات الإلهية الجليلة ويبلغون "الحيرة". أما الآخرون فهناك ضرورة المرور في برازخ الأشياء والأسماء.

إن طرق الوصول إلى الله سبحانه لا تعد ولا تحصى.. التصوف وعلوم الحقيقة، زاد في تلك الطرق للسالكين وذخيرتهم ونورهم ودليلهم؛ وثكنات التصوف أروقة انتظار وموانئ مفتوحة للإبحار إلى الخلود، ومدارس تؤدي مهمة التعليم والتربية لهذا السفر الطويل.

يمكننا أن نعزو طرق الوصال هذه والتي هي بعدد أنفاس المخلوقات إلى طريقين رئيسيين:

١. الطريق الذي يلقن فيه سالك الحق: الرياضة، قلة الأكل، قلة

الشرب، قلة النوم، كثرة التفكر، تجنب الاختلاط الذي لا طائل وراءه، وما شابهها من انضباط السلوك والنظام. وإن كثيراً من أنظمة التصوف التي يسميها بعضهم "طرق برزخية" وبعضهم "طرق التصوف" قد أكملوا نهاية سلوكهم على هذه الأسس.

إن أهم ورد لسالكي هذا الطريق هو: "الأسماء السبعة" التي هي: "لا إله إلاّ الله، الله، هو، الحق، الحي، القيوم، القهار" وأمثالها من الأسماء الطيبة المباركة. ويُستهدف منه قطع الدرجات التي تعدّ مراتب للنفس، وهي: الأمارة، اللوامة، الملهمة، المطمئنة، الراضية، المرضية، الصافية، الزكية. وقد يضيف بعضهم على هذه الأسماء، أسماء جلالية؛ كـ"القدير، القوي، الجبار، المالك، الودود" وآخرون يضيفون أسماء جمالية كـ"الفرد، الواحد، الأحد، الصمد".

٢. الطريق الذي يتقيد بالكتاب والسنة بكل دقة وحساسية، والذي يحث على الأوراد والأذكار، فسالكو هذا الطريق يتحرّون السنة النبوية في كل مسألة، ويحاولون ربط كل عمل يقومون به بالسنة الشريفة. فبدلا من جعل أسماء حسنى مخصوصة ورداً لهم، يتحرّون عن أصول عبادة الرسول ﷺ دعاءً، وذكراً، وفكراً، فيذكرون الله بجميع أسمائه الحسنى. إن سالكي هذا الطريق علاوة على تتبعهم الدقيق جداً لأحكام الشريعة الغراء، بل لأدق دقائقها، يتمسكون بمرشدهم ودليلهم بقوة، ثم يطلقون أنفسهم عبر مدّ وجزر العشق والجذب. وفي الحقيقة أنه بعد ظهور العشق والجذب، يُمسح الوجود كلياً – بوجوهه المتوجهة إلى نفسه – من أمام عيونهم، فإذا بهم

يصلون إلى الفناء من حيث النفس والأنانية، فيدركون الوحدة ذوقاً وشهوداً. وفي هذه النقطة يتقابلون مرة أخرى مع التمكين ويكونون قد أتموا سلوكهم.

إن أهم الأسس في هذا الطريق؛ العبادة، العشق، الجذب، ذكر الله، الصحبة. والمقصود من ذكر الله هنا يضم المطالعة المشتركة والمذاكرة والتباحث، كما تُعلّمنا السنة الصحيحة بـ (يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ).[1]

والسالك الذي يحوم في الحدود النهائية للعشق الحقيقي، ربما يجد نفسه أحياناً -كما هو في الوجد والجذبة- في تيار الشوق والاشتياق. والذي هو بُعدٌ آخر للعشق.

اللّهم وفقنا إلى ما تحب وترضى، وصل وسلم على سيدنا محمد المرتضى وعلى آله وصحبه ذوي الوفاء.

---

١) مسلم، الذكر ١١.

الشوق والاشتياق

الشوق هو الرغبة الملحّة، الطلب الشديد، نشوة نابعة من المعرفة، سرور ومعاناة وتحسّر. ولدى الصوفية، نزوع القلب برغبة إلى محبوب لا يدرك ولا يحاط به كلياً، يشاهد ثم يغيب. وقال بعضهم: هو نشوة فرح واهتياج يضطرم في قلب العاشق لرؤية جمال المعشوق. وآخرون قالوا: جمرة تتوقد في قلب العاشق تبيد مما سوى الميل نحو المحبوب، جميع الخواطر، جميع الميول، جميع الأشواق جميع الرغبات، جميع الطلبات.

إن منشأ الشوق المحبة، ونتيجة المحبة الشوق. ودواء القلب المحترق بالشوق الوصال. والشوق جناح من نور في هذا الطريق. والعاشق حين بلوغه الوصال يسكن الشوق، بينما يزداد الاشتياق. ووجدان المشتاق يهتز بعد كل حظوة طلباً للمزيد.

فالإنسان الأفق والرسول القطب ﷺ الذي يدور بالعشق في أفق الشوق وبالشوق في قطب الاشتياق، في كل آن بمعرفة جديدة وبمحبة جديدة وبذوق روحاني جديد، يتوسل إليه تعالى في مجال الوصال أول ما يتوسل: (أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ)[1] ويطلب المزيد.

---

١) النسائي، السهو ٦٢؛ المسند للامام أحمد ١٩١/٥.

وقد أورد بعض المفسرين في تفسيرهم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ﴾ (البقرة: ١٦٥) أن الشوق يُدرَك من وجه ولا يُدرَك من وجه آخر، وإلاّ فكما لا شوق إلى ما يحيط به الإدراك، كذلك لا شوق إلى ما لا يدرك كلياً. نعم، إن الإنسان لا يشتاق لمن لم يره، ولم يسمع صوته، ولم يطلع على أوصافه، كما لا يشعر باهتمام لما يحيط به ويدركه كلياً.

ويجري الشوق والاشتياق على شكلين وعلى صورتين:

١- الاشتياق الحاصل في أثناء الافتراق بعد مشاهدة المحبوب والوصال به. فأنين "ناي" مولانا وصرير "دولاب" يونس أمره ما هما إلاّ صراخ لما يشعران به من شوق نحو الوصال والمعيّة التي عرفاها في الميثاق منذ الأزل وهذا الصراخ يستمر إلى الموت الذي عدوه "ليلة الزفاف".

٢- العاشق المشتاق، يرى محبوبه وراء ستار، ولكن لا يحيط به، يحس به ولكن لا يدركه إدراكاً تاماً.. يغمس إصبعه بعسل العشق ولكن لا يُسمح له بخطوة أخرى، فينادي: "قطرة ماء.. ما زلت أحترق".. وتحرّقه مطلوب، ولكن لا يؤبه بعويله..

الروح في مثل ذلك الزمن الذي يفوق الزمان، لدى قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (الأعراف: ١٧٢) قد شاهد المحبوب، ولكن بعد ذلك فبمقتضى البشرية، أو بسر التكليف وتقدّم الإيمان بالغيب، فالإنسان الذي أُلقي به في شوق وهجران موقت يظل يهذي في عشقه هذيان المخمور هاتفاً باسمه تعالى طوال عمره، ويحترق بجوى الاشتياق إليه ويضطرم. والأهم من هذا، هو شوق الذات المقدسة بما يوافق استغناءه الذاتي تجاه الأرواح النزيهة

والقلوب الطاهرة والفطر السليمة. وربما المنبع الأصلي للاشتياق الذي يتوقد ويضطرم في الصدور هو هذا الشوق.

الشوق هو توجّه الحواس الظاهرة والباطنة نحو المحبوب مع الانغلاق التام عن كل شهية إلى ما سواه، بينما الاشتياق، هو فيض الرغبات والطلبات نحوه.. وكلاهما من المنابع المهمة لإنماء الروح. وكلاهما مؤلمان ولكن يورثان الانشراح، يضايقان ولكن يعدان بالأمل.

ليس في الناس أكثر قلقاً واضطراباً ممن يحترق بالعشق ويئن بالشوق، ولكن في الوقت نفسه لا أسعد منه. فإنه بتوق الوصال يصبح روحانيا بانتشاء وهيجان إلى حد لو قيل له: ادخل الجنة، ربما لا يدخلها. وهو يحترق من لوعة الفراق احتراقاً لا يطفئه حتى كوثر الجنة، إلاّ وصال المحبوب. ومع هذا لا ينصرف ذهنه قط إلى التخلص مما هو فيه من عذاب كعذاب جهنم. بل لو حالت قصور الجنان بينه وبين شوقه واشتياقه لاستغاث كما يستغيث أهل النار من النار.

الدنيويون من الناس، لا يدركون الشوق ولا أهله، وأهل الشوق كذلك يتحيرون من هؤلاء الغافلين الذين أضاعوا أنفسهم في متاهات الدنيا، ويرتعشون إشفاقاً على حالهم. فقد "أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام: لو يعلم المُدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليّ.."[1].

فعندما يحيط الشوق كاللهب كيان الإنسان كله يهتاج العاشق بمشاعر

---

١) الرسالة للقشيري ٤٩٥.

الاضطراب واللذة ويصرخ:

اَلشَّوْقُ حَيَّرَنِي، اَلشَّوْقُ أَحْرَقَنِي اَلشَّوْقُ فَرَّقَنِي بَيْنَ الْجَفْنِ وَالْوَسَنِ

اَلشَّـــوْقُ قَرَّبنِيَ الشَّوْقُ أَغْرَقَنِي اَلشَّـــوْقُ أَقْلَقَنِي اَلشَّوْقُ أَدْهَشَنِي

وأحياناً ينعكس انفعال الروح هذا على البدن، فيدفعه إلى الرقص، والقيام بالسماع. ففي مثل هذه المواقف يعدّ العاشق معذوراً لغلبة الحال على إرادته.

فَقُلْ لِلَّذِي يَنْهَى عَنِ الْوَجْدِ أَهْلَهُ إِذَا لَمْ تَذُقْ مَعَنَا شَرَابَ الْهَوَى دَعْنَا!

إِذَا اهْتَزَّتِ الْأَرْوَاحُ شَوْقًا إِلَى اللِّقَاءِ تَرَقَّصَتِ الْأَشْبَاحُ يَا جَاهِلَ الْمَعْنَى!

فَيَا حَادِيَ الْعُشَّاقِ قُمْ وَاحْدُ قَائِمًا وَزَمْزِمْ لَنَا بِاسْمِ الْحَبِيبِ وَرَوِّحْنَا!

والشوق في طريق العجز والفقر هو عدم الفتور في خدمة الايمان والقرآن، وعدم الوقوع في اليأس حتى لو تعرض لما يبدو أسوأ المواقف وأقبحها، إذ يمتعض ويحزن ولكن بملاحظة: "لعل للحق سبحانه أثر رحمة في هذا"، ينتظر بأمل وبثقة مطلقة بالله. هذا الشوق هو أحد الأبعاد الأربعة والأعماق الأربعة لأرباب تلك الخدمة اليوم.

اللّهم إنّا نسألك شوقاً إلى لقائك.

وصلّ وسلم على سيدنا محمد سيد المشتاقين وعلى آله وصحبه أجمعين.

الجذبة والانجذاب

الجذبة هي الجلب وشدّ الشيء إلى غيره، الغيبة عن النفس والنشوة الروحية. وفي اصطلاح التصوف: أخذ الله السالك إلى حضرته، وحال الوجد الناشئ منه، واتصاف السالك بالصفات الإلهية – أي بالأخلاق الإلهية القرآنية – منسلخاً من الصفات البشرية، وإدراكه الوحدة من وراء التجليات الجلالية واستشعارها أو مشاهدتها، بحيث إن الروح الطاهر والمستعد ليعكس هذه التجليات يلقي بنفسه في خضم الأمواج العاتية الآتية من الغيوب، باستسلام عميق دون خوف ولا وجل ولا قلق ولا اضطراب كالسابح الجيد المتمرس، وأحياناً يسبح دون انقطاع في شوق وطرب.

إن كانت الجذبة جلباً مرتبطاً بذات الإنسان وشداً للسالك بقوة قدسية إلى المركز نحو غاية خَلقه والأفق الذي تشير إليه بوصلة ماهيته، فالانجذاب هو استجابة الروح لهذه الدعوة الواردة، طوعاً دون مقاومة بقوله: " أَتَيْنَا طَائِعِينَ".

الجذبة، موهبة عظمى وحظوة كبرى، لا يمكن أن تُكتسب بالأسباب العادية. والسبب الوحيد لهذه الحظوة هو جبر مقدس واختيار مبجّل. أجل، إن الاستعداد في الروح والصفاء في القلب اللذين يحتضنان الجذبة، وكذا

تشريف هذه الفطرة النـــزيهة المشتاقة للمعالي بموهبة ثانية، كلاهما يعـــودان للحق تعالى. ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ (الحديد:٢١). نعم، الفضل منه فهو الذي يُدخل أجزاء الزمان العظيم وما فيه من شـــؤون في آن ســـيال.. فيمنح الخطوة الواحدة القدرة على بلوغ الجنان.. ويهب النظرة الواحـــدة قابلية تُحوِّل الفحمَ ماساً.

إن ما يبدو قطعه محالاً بإرادة الإنسان من المسافات الطويلة جداً والمرتفعات الشاهقة يتحقق بجذب الحق سبحانه ورفعه، بحملة واحدة وبنفحـــة واحـــدة، كالمعراج. وقد قيل إشارة إلى هذا، كلام طيب هو: (جَذْبَةٌ مِنْ جَذَبَاتِ الرَّحْمَنِ تُوَازِي عَمَلَ الثَّقَلَيْنِ)،[1] أي القرب الحاصل من أعمال الثقلين.

فالمنجذبون بجاذبة الحق، يدركون في أرواحهم، أسرار الإيمان والإسلام والإحسان، ويُطلق على مشربهم "المشرب الأويسي".. حيـــث إن جميـــع مشاعر هؤلاء وتفكرهم وحواسهم وسلوكهم - بفضل انجـــذابهم بتلـــك الجذبة المقدسة - تمضي دائماً في استغراق وحيرة.

وتتشكل أحياناً "دائرة صالحة" كـــ"الدور" بـــين الجذبـــة والرياضـــة والعبادة. فسالك الحق يكرَّم بالجذبة بمقدار عبادته ورياضته، وبمقدار جذبته ينقطع إلى الرياضة والعبادة. وطالما الحركة هي وفق ما تشير إليه إبرة الموازين الشرعية، يستمر هذا التعامل وهذا التسلسل الولود. وبخلافـــه أي بمقـــدار ابتعاده عن الإقليم النوراني لمشكاة محمد عليه أكمل التحايا، يجابه بحـــالات ظلمانية في "دوائر فاسدة"، من بروز التباسات متنوعة و ظهور أشكال من

---

١) كشف الخفاء للعجلوني ٣٩٧/١.

الإهمال واللامبالاة والاستخفاف بموازين التكاليف الشرعية.

الجذبة استعداد وموهبة أولى قبل كل شيء. فلو لم يكن عطاء الله الجبري الأول هذا، لما كسب سالك الحق الجذبة ولا الانجذاب بمجرد الرياضة والعبادة والتزكية، ولما شاهد ولا أدرك تموجات الجذب والانجذاب على وجه الكائنات الحاصلة بالنور المترشح من اسم الله "الودود". فمثلما لا يصح إطلاق "لا شيء" إلى مثل هذا السالك، من الصعوبة إطلاق أنه "شيء ذو قيمة" أيضاً.

ما حيلة الشيخ معي إن لم تكن جذبة العشق

ما حيلة الشيخ معي إن لم يرد الإلهام من الحق

(يونس)

الجذبة تجعل الإنسان أحياناً مستغرقاً في محيط الفيض الإلهي، قد دفن الدنيا والعقبى وعلاقته بهما في نسيان عجيب حتى لا يستطيع أن يرى غير تجلياته سبحانه. يقول "معلم ناجي":

جذبة أُعطيتها كأنها هدير البحر

حتى ظننت خيالي بحر الفيض الإلهي

يقول هذا ويرى نفسه والأشياء جميعها مثله في نشوة سكرى بجذب ذلك الجذّاب المقدس.

نعم، "إن كل الناس وكل شيء نشوان بجذبة المحبة الإلهية وبشراب المحبة.. فالفلك نشوان، والملك نشوان، والنجوم نشاوى، والسموات

نشاوى، والشمس نشوى، والقمر نشوان، والأرض نشوى، والعناصر نشاوى، والنباتات نشوى، والشجر نشوى، والبشر نشوان، والأحياء كلها جميعا نشاوى".[1]

والجذبة على نوعين:

١- خفية: وهي أن المجذوب يحبّ الحق سبحانه، ويتلذذ بلذة غامرة وهو يأتمر بأوامره، ويشعر دوماً أنه ينجذب ليغترف من أعمق منابع اللذاذات.

٢- جليّة: وهي أن المجذوب في كل آن ينبسط أكثر ويتسع، ويكسب حالاً أكثر سحراً. ويشعر بإدراك عميق وحدس مبصر أنه منجذب بجذب ذلك الجاذب المطلق إلى دنيا ذات أسرار تفوح بعطر الأنس والحضور والاطمئنان، وهكذا يفني عمره مجذوباً. فالذين يجهلون الحال، يرون منه تلونات في حياته فيظنونه مجنوناً دون شك. وللتعبير عن هذا الحال وهذا الالتباس للسيد عبد العزيز مجدي شعر غزلي أردفه بجنون وهو ذو مغزى عميق:

"جنون سَمّوه جذبة بل هو فوز مأمون، فمن ها هنا تعتلى القمم أسرار الجنون".

نعم إن للجذبة جوانب شبيهة بالجنون ظاهراً، ومع هذا فهما شيئان في غاية الاختلاف. فإدراك المجذوب بتحوله من حال إلى حال بتجليات الجذبة، إما أنه يزلّ إلى ما دون إدراك البشر الاعتيادي ويهوي، حيث يبدأ ظهور

---

١) الكلمات، الكلمة الثانية والثلاثون، الموقف الثاني، الرمز الرابع لبديع الزمان سعيد النورسي.

حالات لا تنسجم والشريعة الغراء والعقل القويم والحس السليم، أو يرتفع متجاوزاً المستوى الاعتيادي للناس، فيبلغ ذروةً تفوق مستوى البشر، بحيث إنه لدى سياحته إلى ما بعدها يطير إلى الخلود حاملاً مشعل السنة المطهرة متقدماً الحس والعقل، ولكن يظنه المشاهدون مجنوناً.

هيهات! أين الجنون الذي هو سقوط تحت مستوى العقل وأين السير قدماً أمام العقل والحس برفاقة التوفيق الإلهي.

اللّهم إنّا نسألك موجِباتِ رحمتك وعزائمَ مغفرتك والسلامةَ من كل إثم والغنيمةَ من كل برٍّ والفوزَ بالجنة والنجاة من النار.

وصلِّ اللهم على سيدنا سيد الأبرار والأخيار.

الدهشة والحيرة

إن سالك الحق الذي يجول في وديان العشق والشوق، يحترق أحياناً بنار العشق، وأخرى يشرب ما يقدمه الحبيب من شراب الخلود فينفعل بالشوق والطرب. فعندما يسيح محترقاً يئن قائلاً: "أيها الساقي اسقني ماءً قد احترقت بنار العشق"، وحينما يرنو باشتياق إلى باب الحبيب المنفرج يقول متوسلاً: "لقد غمست إصبعي بعسل العشق فاسقني ماءً" ويطلب المزيد.

وطالما بقي في السالك، التفكر في السفر، القلق على الدنيا، مراقبة المسافات، أو بتعبير آخر، لحين تجاوز السالك تجلى الأسماء والصفات و"لحين" تشرفه بتجلي الذات الجليلة.. إلى هذا "الآن" يذوق النار والشرب والاحتراق، فيأخذ نصيبه من فرجات الأستار ﴿وَسَقَيهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (الإنسان: ٢١) ويستمر البحث عن "المزيد" في وديان المعرفة. فكل وارد جديد في مثل هذا الصدر يفتح منافذ اشتياق جديدة.. وتسيل الأنوار من كل منفذ على عين السالك وقلبه فتعمل مشاعره وفكره عمل المكوك بين الأشياء وقلبه، ناسجةً مخمل معرفته.

نعم، كما يفتح النحل سبيلاً للأزهار كي تتحول عسلاً في خلاياها، كذلك السالك يحمل أزهار تجليات الأسماء والصفات الإلهية إلى قلبه، ويمررها من أنابيق

الوجدان السديدة، حتى يشعر كأن أهدابه تذهب وتتعلق بحزم نور الصفات.. فيردد: "الذات".. ويطلق عنانه للحيرة والدهشة.

يقول "صاحب كلستان" وكأنه يعبّر عن حال السالك بين النار والشرب بموسيقى الدهشة والحيرة:

دِيدَارْ مِي نُمَايِي وپَرْهِيزْ مِيكُنِي   بَازَارِ خُوش وآتَشِ مَا تِيزْ مِيكُنِي[1]

أُشَاهِدُ مَنْ أَهْوَى بِغَيْرِ وَسِيلَةٍ   فَيَلْحَقُنِي شَأْنٌ أَضِلُّ طَرِيقًا

يُؤَجِّجُ نَارًا ثُمَّ يُطْفِى بِرَشَّةٍ   لِذَاكَ تَرَانِي مُحْرَقًا وَغَرِيقًا

ويقول "إسماعيل حقي البروسوي":

اَزْ (سَقَيهُمْ رَبُّهُمْ) جُمْلَه ابْرَار مَسْت

دَرْجَمَالِ لا يَزَالِي هَفْتُ وَپَنجُ وَچَارْمَسْت

"انظر وشاهد فقد سحر "سَقَيهُمْ رَبُّهُمْ" الأبرار قاطبة، السبعة والخمسة والأربعة كلهم نشاوى من ذلك الجمال اللايزالي". وقد أظهرهم البروسوي ببيانه الساحر أنهم مخمورون دائماً. وهذا نظر من زاوية أخرى.

ولكن سالك الحق في أثناء تجواله في وديان الدهشة والحيرة، إن لم تكن موازنة القلب معيَّرة تعييراً وفق العالَمَين معاً، فإن السُكر والغيبوبة، وفَقْدَ الموازنة والطيش وبدوره الكلام والسلوك المخالف لروح الشريعة أمر

---

١) أي: "بحسنك تغريني وتطلب عصمتي   ونار الهوى تذكي وتأمر بالتقوى" (من ترجمة محمد الفراتي "كلستان" روضة الورد ٩٣). كليات سعدي، قسم الغزليات، الغزل رقم (٦٢٣) ص ٦٤٢ الطبعة الثامنة بتحقيق محمد على فروغي، مطبعة سثهر، طهران.

حتمي... أي عندما تحلّق المشاعر في أجواء الحال و لم يكن المنطق والمحاكمة العقلية مرتبطة بمشكاة النبوة، و لم تكن السياحة في ظل الحقيقة الأحمدية ﷺ.

وما أجمل ما عبّر الملا جامي عن الدهشة والحيرة بكلامه الساحر الملفع بالجمال والصدق:

زَنَانِ مِصْرِي بَهَنْگَام جِلْوَهٔ يُوسُف

زِ رُوي بِي خُودِي اَزْ دَسْتِ خُودْ بَبَرِيدَند

مَقَرَرَسْت كِه دِل پَاره پَاره مِيكَرْدَنْد

اگَر جَمَالِ تُوَاى نُورِ دِيدَه مِي دِيدند،

زِ خُوبي تُو بَهَر جَا حِكَايَتِي مِي گُفتَند،

حَدِيثِ يُوسُفِ مِصْرِي فُسَانه اِي بَاشَد

"إن نساء مصر عندما رأين جمال سيدنا يوسف عليه السلام أكبرنَه وغبن عن أنفسهن وقطّعن أيديهن من الحيرة والدهشة. فلو كن قد رأين جمالك يا نور عيني ويا سيدي، لكُنّ أنزلنَ سكاكينهن التي في أيديهن على قلوبهن. ويظل جمال سيدنا يوسف عليه السلام خافتا عندما يذكر جمالك".

فإن كانت أنواع الجمال والحسن الدنيوية –وهي غير ذاتية وفانية– تُفقد الإنسان عقله على هذه الصورة، فكيف بمشاهدة ومكاشفة جمال ذات جليلة، الذي جميع أنواع الجمال والكمال ما هي إلاّ ظلال ظلال جماله وكماله المقدس المتحجب بسبعين ألف حجاب. وأعتقد أن إدراك مثل هذه الحيرة والدهشة لا يتيسّر إلاّ بصعوبة بالغة على أمثالنا من الفانين.

إن رجال الدعوة، من زاوية خدمة الايمان والقرآن، ووضعهم جانباً جميع أذواقهم، المادية والمعنوية، الجسمانية والروحانية، بعيداً عن الأنظار والأسماع، وتوجههم لمشاهدة جلوات العناية الإلهية في وجه خدماتهم الإيمانية.. فيزخرون حيرةً وإعجاباً.. وكذا تَنَقّلهم بين واجباتهم الإيمانية والعناية الربانية وانغلاقهم - إلى حد - عن كل ما هو خارج عن دعوتهم، ما هو إلاّ موهبة حيرة خاصة من خزينة "نَحْنُ قَسَمْنَا" الخاصة لجنود النور.

اللّهم اجعل في قلبي نوراً وفي لساني نوراً وفي بصري نوراً وفي سمعي نوراً وعن يميني نوراً ومن خلفي نوراً ومن أمامي نوراً واجعل من فوقي نوراً ومن تحتي نوراً وصلّ وسلّم على من أرسلته نوراً وعلى آله وأصحابه أجمعين.

القبض والبسط

"القبض والبسط" يدخلان في مدار حياة أي إنسان في أي مستوى كان وبأبعاد مختلفة ويستحوذان عليه، يتعلقان بكل فرد يحيا بشعور مستشعراً بالحياة.

القبض أو الانقباض هو الانطواء والانكماش، وحالة انتزاع الروح، أو انقطاع الفيوض المعنوية للإنسان، ارتخاء علاقته الوثيقة مع منبع الفيض الأبدي لما في ماهيته من ثغرات وبقاؤه في فراغ إلى حدّ ما في حين ينبغي أن تكون رابطته وثيقة معه.

أما "البسط"، فهو مدّ، انفتاح، عرض، توسع، انشراح وابتهاج، أو ارتفاع الإنسان إلى نقطة يكون وسيلة رحمة في الوجود إلى حد استيعابه الأشياء، توسع القلب وانشراحه، سمو الذهن إلى حيث يتمكن من حل أكبر المعضلات.

إن كلاً من الخوف والرجاء طور إرادي، ومنزل أوّلي ونقطة بداية لسالك الحق، أما القبض والبسط فهما معاملة ذات أسرار في الحدود النهائية بعيداً عن بعض الأسباب الإرادية، فإما يقطعان السبيل على سالك الحق أو يرفعانه ويحلّقان به.

نعم، إن كان الخوف والرجاء، هو إحساس بالقلق أو نشوة أمل مما

يُحَب أو يُكرَه فيما يخص المستقبل؛ فالقبض والبسط، نبض القلب بالنشوة أو إنكماشه بالقسوة فيما يخص الحاضر، بتأثير موجات ترد عليه مختلفة في الطول واللون.

إن ما يفيده القبض لمن يجولون في ربوع المعرفة، يفيده الخوف للذين هم ما يزالون في الطريق، وما يفيده البسط لأولئك، يفيده الرجاء لهؤلاء.

القبض والبسط بيد الله سبحانه كما في قوله سبحانه ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ (البقرة: ٢٤٥) بغض النظر عن التأثير النسبي للإرادة الإنسانية التي لها ماهية اعتبارية. فكما أن الوجود كله في قبضة تصرفه سبحانه، كذلك يدير متى يشاء، وكيف يشاء كل شيء من السموات إلى قلب الإنسان. وحديث الرسول ﷺ يذكّر بهذا: (إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ).[1]

فالله سبحانه متى شاء يقبض القلوب قبضاً يغرقها في حاجات شتى حتى لا يمكن أن يدفع تلك الحاجات غيره تعالى، وإذا شاء يبسطها لمن يريد بسطاً واهباً لهم انشراحاً لا يشعرون معه بحاجة إلى أحد.

القبض جلالي والبسط جمالي: ففي أحدهما تظهر العظمة والكبرياء بسر "الواحدية"، وفي الآخر تتبين الرحمة وتجلي التنزل. ففي أحدهما اقشعرار الأبدان أمام القدرة التي تدير الوجود كله كحبات المسبحة من الذرات إلى المجرات؛ وفي الآخر نفحات "الأُنس" تكرمة للأرواح الوجلة من الحيرة والدهشة أمام هذه العظمة التي تواضع لها كل شيء وهذا الجبروت الذي ذلّ له كل شيء.

---

١) مسلم، القدر ١٧؛ ابن ماجة، الدعاء ٤؛ المسند للامام أحمد ١٦٨/٢.

بيد أن كل شخص لا يشعر بهذا التجلي وبهذه التكرمة في المستوى نفسه، ذلك لأن تجليات القبض والبسط تتناسب طردياً مع سعة صدر الأشخاص وضيقها. نعم، إن ما يشعر به شخص عامي من ضيق صدره أو انشراح قلبه، ليس كما يشعر به ذو القلب اليقظ المتفتح إلى الماوراء المتسرع بالانفعال والخشية، المشحون بشعور أنه يراقب من فرجة باب، فيعتريه الانبساط والنشوة في مواضع والقلق والاضطراب في أخرى.

القبض والبسط أيضاً ككل شيء تحت تصرف الخالق العظيم، يتعاقبان كتعاقب الليل النهار والنهار الليل. فإن الإرادة الإلهية – مع ملاحظة أن الأسباب شرط عادي – تضيّق شرائح القبض والبسط وتبسطها، دافعةً الإنسان إلى توترات وانقباضات أو تهيجه بالأفراح والمسرات. نعم، الإنسان أحياناً يقطع شريحة زمان واسع جداً، من دون أن يقع في قبضة القبض، يحلّق كالطيور في الهواء. وأحياناً أخرى تضيق حالات القبض فتتوسع شرائح القبض حتى لكأن الإنسان يتدحرج من فراغ إلى فراغ. فيتكدر الروح وينكفئ الإنسان على نفسه.

كما أن عدم القدرة على إعطاء المقام –الذي هو هبة إلهية– حقه أحياناً، يكون وسيلة قبض، فكثيراً ما تأتي الذنوب مرافقة لحال القبض. وعلى هذا يجب أن تكون حالة القبض وسيلة إيقاظ للمؤمن كل حين. فلا بد من اتخاذ الحذر من الغفلات، والقيام بإزالة الذنوب والآثام بالتوبة والحسنات، وتوجيه بصيرة القلب مرة أخرى إلى الغيوب.

في مقابل القبض الذي يرد مصحوباً بنغمات العدم والحيرة والهلع

واللاشيء، يتجلى البسط بأشكال النشوة والسرور والشطحات. وعلى هذا فالبسط ربما يكون سبباً للانخداع والضياع لقسم من الأرواح الهزيلة التي لم تتفتح بعد لمشاهدة الغيوب ولم تعيّر أجهزتها وفق الحياة الأخروية. ويصدق هذا أيضاً على حال القبض، ولكن ليس بمقدار البسط بلا شك؛ ذلك لأن المتضايق بالقبض يقول كل آن بوجدانه "لا تدعني يا إلهي وشأني فأنا لا أستغني عنك" فيتجاوز جيوب الهوى كما تخترق الأجسام جيوب الهواء. فيتكامل بعنايته تعالى، ويمكن أن يصل في تلك البرهة الزمانية القاسية إلى ما لا يوصل إليه بحال البسط.

لذا عدّت حالة القبض فصلاً من فصول التيقظ للناس أجمعين مقابل ما في حالة البسط من غفلة وتراخ لبعض الأرواح.

وكذلك فالقبض الذي يَرِدُنا نتيجة تقصيراتنا وغفلاتنا، قد يكون مقدمة لبسط آت؛ والبسط الذي يؤدي إلى الشطحات والتراخي ربما يكون سبباً لقسم من أنواع القبض المهلك.

والمؤمن الحق، هو الذي يقيّم كل حال ضمن إطاره الخاص ويعرف كيف يستثمره.

القبض والبسط تجليان منه تعالى للعارف
فالقبض والبسط مدعاة شكر للعارف.

اللّهم اشرح صدورنا للإسلام وثبت قلوبنا على الإيمان.
وصلّ وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه الفخام.

الفقر والغنى

الفقر هو العوز، عدم التملك لما يُحتاج إليه. ولدى أربابه هو التخلي قلباً عن الوجود كله، سوى البقاء ضمن العلاقة بين العبد والمعبود، واستشعار الحاجة إلى الله وحده والعيش في شعور الاستغناء نحو الوجود. فأهل التصوف يفهمون الفقر هكذا. فمثلما أن هذا ليس هو بمعنى الفقر لدى الناس الذي يعني الحاجة والعوز، فهو ليس كذلك عرض حاجاته إلى الناس بالتسول.

الفقر هو التوجه مباشرة إلى الأحد الصمد بقطع العلاقة مع كل موجود غير ذاتي. ولهذا فبمقدار ترك الإنسان جميع الفانيات الزائلات قلباً وفنائه في الصفات والذات الأهية يبلغ الفقر ويتقلد الفخر بمضمون "الفقر فخري".[1] وقد عُبّر عن الفقر في قول قدسي بأنه عندما يصل إلى بُعدٍ للإيمان والإذعان، تمحى جميع الإرادات والمشيئات والقوى ولا يبقى إلاّ حول الله وقوته.. فلو ملك هذا الشخص ملء الأرض ثروة وغنى، يفترضها كلها خيالاً لأنها زائفة زائلة، فلا يرى إلاّ هو سبحانه، ولا يدرك إلاّ هو، ولا يفكر بشيء إلاّ هو، ولا يثق بأحد إلاّ به مستشعراً عجزه وفقره فلا يلجأ إلاّ إليه ولا يبالي بغيره

---

١) كشف الخفاء للعجلوني ١١٣/٢.

قط. وما أجمل ما قاله المرحوم "نابي":

لا تستصغرن الفقر يا نـــابي
فالفقر مرآة صورة الاستغناء.

ولمولانا الرومي:

اَلْفَقْرُ جَوْهَرٌ وَسِوَى الْفَقْرِ عَرَضُ وَالْفَقْرُ شِفَاءٌ وَسِوَى الْفَقْرِ مَرَضُ
اَلْعَـــالَمُ كُلُّهُ سُـــدًى وَغُـــرُورُ وَالْفَقْرُ مِـــنَ الْعَالَمِ سِـــرٌّ وَغَرَضُ

وفي الحقيقة أن الإنسان عاجز وفقير ومحتاج حتى لو لم يحدس الإنـــسان بشعور الإيمان عجزه وفقره واحتياجه، ويقول الله سبحانه لبيـــان وضـــعه الطبيعي هذا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيـــدُ﴾ (فاطر: ١٥). نعم، كما أن الإنسان كان محتاجاً إلى ترجيحه سبحانه وتقديره ومشيئته لأجل إخراجه من "ممكن الوجود" إلى نور الوجود فهـــو محتـــاج كذلك إلى فيض وجوده في كل لحظة، لإدامة وجوده.

إن فقر الإنسان واحتياجه ليس سبباً لذلّه. بل هو وسيلة لعزته بمقـــدار استشعاره بفقره. لأن الفقر والحاجة إلى الله وهو الغني المطلق، هـــو الغـــنى بعينه. نعم، إن الإنسان يتجه إليه تعالى بشعوره بنقطتي الاستناد والاستمداد في وجدانه والإحساس بهما، فيبلغ بنسبة استشعاره هذا إلى أن يدرك" أنـــه ليس محتاجاً إلى الغير". فمثل هذا الشخص بينما هو فقير كليـــاً لا يـــشعر بحاجة لأي أحد ولا لأي شيء. وفقير كهذا أيضاً يدرك أن وجود كل شيء ووجوده أيضاً، من الله سبحانه، ويعدّ كل ما يملكه هو ما هـــو إلاّ ظـــلال

ضياء وجوده سبحانه. وعندما يصل الشعور بالتوحيد إلى هـذا المستوى يسمى بـ "الفناء في الله" وبعد خطوتين هناك "البقاء بالله". يقول المرحوم "خيالي":

يتدثرون الفقر...
ويفتخرون بهذه الثياب...
ولا يأبهون بالديباج والحرير...

الفقر، شعار الأولياء، حال الأصفياء، أبرز علامة على محبة الحق سبحانه.

الفقر، سرّ يضعه الحق سبحانه تعالى في قلوب أوليائه، فتُعمّر بنوره.

الفقر، مفتاح نوراني يفتح بصيرة الإنسان إلى خزائن الحق سبحانه التي لا تنفد، وَمَن مَلَكَ هذا المفتاح فهو أغنى العالم.

الفقر، باب الغنى، فالذين يمرون من هذا الباب، يصلون كنوز "مالك الملك" فيجدون الفقر عين الغنى، ولهذا يصح أن نقول كما قال الجنيد الغنى هو الفقر قد بلغ الكمال.[1]

نعم عندما يكتمل الافتقار إلى الله يوصل إلى الغنى المطلق. وإذا ما وصل إلى الغنى فلا يشعر روح الإنسان بحاجة إلى شيء آخر، ولعل هذا يقصد بالمثل "الغنى هو غنى القلب".

نعم، الإنسان إذا بلغ إلى هذا الغنى يصبح كأنه مالك لبطاقة الاعتماد المقبولة في كل مكان. فالذي يملك مثل هذا الرأسمال ذي الأسرار ليس

---

١) انظر: الرسالة للقشيري ٤١٨.

ضعيفاً ولا فقيراً. هذه الحقيقة الجديدة يبينها كلام قديم نذكره من باب أيّ شيء أفضل من العدم:

منه القوة فنحن أقوياء
وباسمه نحن كرماء
نسير ونتخطى الذرى
تذلل لنا الصعاب
بلا مال فنحن أثرياء
به أصبحنا أعزاء
التفكر مسلكنا
كل رطب ويابس عرفان لنا[1]

اللّهُمَّ تَمَّ نُورُكَ فَهَدَيْتَ فَلَكَ الْحَمْدُ، عَظُمَ حِلْمُكَ فَغَفَرْتَ فَلَكَ الْحَمْدُ، بسطتَ يدَك فأعطيتَ فلك الحمد، ربنا وجهُك أكرمُ الوجوه وجاهُك أعظم الجاه وعطيتُك أعظمُ العطية وأهناها تطاعُ ربَّنا فتَشكُر وتُعصى فتَغفر وتُجيب المضطرَّ وتَكشف الضُّر وتشفي السقيم، وصلِّ وسلِّم على سيدنا وسيد العالمين محمد الهادي إلى صراط مستقيم وعلى آله وأصحابه المخلِصين المخلَصين.

---

١) المضرب المكسور للاستاذ محمد فتح الله گولن (تركي) ٤٤-٤٥.